13 الميثـــاق

كل سطر إلى زوال، إلا هذا القرآن، فإنه خالد.

وكل نتاج عقول البشر في تغير وتبدل دائمين، وتعتريه الرجرجة، إلا نتاج عقل يقتبس من مشكاة هذا القرآن، فإنه يقتبس أيضا شيئا من ذلك الخلود، ويكون فيه الاستقرار والثبات.

فمن ثم تجد وحدة الفهم، ووحدة الوصف والتشخيص والمعالجة تجمع من تكلم في الإسلام ونقد المجتمع، ابتداء بمن رأى النبي ﷺ وانتهاء بمن آمن به ولم يره في هذا القرآن، بل حتى إنك لتجد في كلامهم بوضوح وحدة الأسلوب البلاغي، ووحدة الاصطلاح.

إن هذا الحفاظ والثبات وإن رآه الواهمون جمودًا، ووقوفا، إلا أنه في الحقيقة هو الإبداع كله.

فحين يضع الفيلسوف نظرية، أو حلولا لمشكلة إنسانية، تكون حماسته، والحماسة التي يتمكن أن يبعثها في تلامذته بسحر بيانه من عوامل تغطية ما يعتور حلوله من العيب، وينسيهم الإرهاق الذي ترهقهم به مثالياته، ثم يفضح طول التطبيق نظرياته، فينتدب مغرور آخر نفسه ليغير الأوصاف والحلول، ويأتي بنظريات جديدة، ويظن هو ومن معه أن ذلك هو الإبداع ودليل الحيوية.

لكن حلول الإسلام، لأنها تنطلق من حقائق الفطرة، ومنزلة ممن خلق الفطرة، لا يزيد طول التطبيق وتبدل المجتمعات إلا رسوخًا، ويبز في كل

جيل مثل تطبيقي يشير للناس إلى مصداقها، وهذا هو عنصر الإبداع، فإن ثبات الإسلام وتقلب غيره في التخبط والتبدل إبداع في الإسلام وإعجاز.

ولهذا، فإن عرض الأقوال المتشابهة التي فاه بها السلف والخلف من فقهاء الأمة، وإن كان يكرر المعنى والمبنى، فإنه من جانب آخر ينبه على وحدة المنهج والفهم والأداء، وإبراز الوحدة بحد ذاته عنصر يجب على بحوث فقه الدعوة أن تحرص عليه، لما يتضمنه من الإشارة إلى أصالة الخلف، وعراقة مذهبه.

صراحة الإسلام لا استفزاز الظروف

فانظر من قول السلف الأول القديم مثالا:

قالوا: (**سئل حذيفة ا عن ميت الأحياء، فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه**) [1].

وانظر معه تعابير سيد قطب في وصف من لا ينكر.

هل تستطيع بعد النظر أن تقر من يطيل لسانه على حذيفة بن اليمان ا ويتهمه بأن كلماته وليدة استفزازات الظروف الصعبة التي كان يعيشها؟

إنه يصف غافل القلب الأخرس بالموت.

فإن تنبه قلبه وظل صامتًا، فإن حاله عند حذيفة يقتضي أن نصفه بالمرض الشديد، والشلل القريب من الموت.

وما زادت تعابير سيد والمعاصرين فيما يظن أنه من عنف التعبير على حروف حذيفة.

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣١١.

إنه ليس من إفراط في حماسة الدعاة، بل هو وضوح الدعوة الذي يفرض نفسه، ولذلك نرى المعتنق لها بصدق سرعان ما ينشأ نشأة أخرى غير التي كان عليها تماما، وتتحور مفاهيمه، ويخرج من صومعته ليقود الناس، كالذي كان من أمر التابعي وهب بن منبه اليماني، عرفه اليمن راهبا معنيا بسجع الرهبان وعلوم أهل الكتاب المحرفة، فلما أسلم وسئل عن صفة المسلم قال: **(يقتدى بمن قبله، وهو إمام لمن بعده)** [1].

فوصفه بالإمامة والتصدي للقيادة بعد إذ كان هو نفسه منعزلا، وما هو بفهم يبتدعه، لكنه حين أسلم لم يجد مهمة المسلم المتعلم إلا بهذه الصفة، ووجد القرآن يصف إبراهيم ÷ بأنه كان أمة، وفي أحد تفسيري هذا الوصف أنه من الاقتداء والائتمام، كما ذكر ابن القيم، فإنه قال: **(الأمة: هو القدوة الذي يؤتم به، قال ابن مسعود: والأمة: المعلم للخير، وهي فعلة في الائتمام، كقدوة، وهو الذي يقتدى به)** [2].

البيعة القديمة الحديثة

وما كان جيل من أجيال المؤمنين القدماء الذين أحاطوا بالأنبياء القدماء يفهم إيمانه على أنه تصديق قلب مجرد، إنما فهموه إعانة ومساعدة باليد والمال، ونصر بضم قوة المؤمن إلى قوة جماعة المؤمنين في معاركها وصراعها مع الكافرين، وكان إبراهيم، وموسى، وعيسى، وكل النبيين عليهم السلام يأخذون البيعة ممن يؤمن بهم على أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصرونه في صراعه مع الكفر إذا بعث نبيا وهم أحياء يرزقون، كما أخبر الله تعالى عن ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد/ ٣٧٢.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٤.

ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿

[آل عمران:٨١]

(قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه) [(١)].

وإذن، فالبيعة علينا نحن الآن من ورثة محمد ﷺ أوجب وأظهر إلزامًا وأولوية.

واعتمادًا على هذا الميثاق القديم فهم ابن تيمية(**أن الصادقين في دعوى الإيمان: المؤمنون الذين لم يعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين)** [(٢)].

لا مناص ولا فكاك من تأييد الدعاة

ومن لم تسعفه ظروفه أو كفاءته أو مقدار علمه في أن يكون داخل الصف المجاهد فإنه لا يعذر بالقعود، بل عليه أن يعين من يأمر وينهي ويجاهد، ويكون مؤيدًا مساندًا.

وبذلك قال الفقيه الإمام الشاطبي، فإنه يتصدى لشرح معنى قول الفقهاء: إن فروض الكفاية إن قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، وخصص وسمى من فروض الكفاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم، والولاية والإمامة، أي الخلافة وطلبها وسياسة الناس بالشرع وبين / أنها وإن سقط وجوبها عن غير القادر عليها، فإنه مطالب

(١) (٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٢.

بالتفتيش عن القادر وحثه وإعانته على القيام بها، بل إجباره على القيام بها، وساق أمر الولاية كمثل ينسحب ليشمل ما نص عليه هو من العلم والأمر والنهي، وعلى ما لم ينص عليه مما يوصف عند الفقهاء بأنه من فروض الكفاية.

(لكن قد يصح أن يقال: إنه –أي فرض الكفاية– واجب على الجميع على وجه من التجوز، لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلا لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرًا على الولاية فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر، وإجباره على القيام بها، فالقادر إذن مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) [1].

وهذا كلام صريح لا يعذر أحدًا من المسلمين في قعوده عن تأييد الدعوة الإسلامية مهما كان له من ظروف العائلية والصحية والوظيفية والدراسية وأمثالها عذر يمنعه من الانتساب الفعلي.

عرف الشاطبي ذلك لمتانة منهجه في البحث، وفهمه السليم لمقاصد الفقهاء، الأوائل وهم يضعون القواعد العامة. ولأن عبد القادر عودة كان يسير على نفس المنهج، ولم يكن ليحرفه هو النفس، فقد توصل إلى النتيجة نفسها، وأوجب على الجماهير في كل وقت أن تؤيد الحركة الإسلامية الآمرة بالمعروف، وحمل الجماهير مسئولية تسلط أعداء الإسلام، فقال:

---

(١) الموافقات للشاطبي ١/ ١١٤.

(إن جماهير المسلمين قد ألفت الفسق والكفر والإلحاد حتى أصبحت ترى كل ذلك فتظنه أوضاعًا لا تخالف الإسلام، أو تظن أن الإسلام لا يعنى بمحاربة الفسق والكفر والإلحاد، ولا يعنيه من أمر ذلك كله شيء.

إن الإسلام يوجب على المسلمين أن يتعلموا الإسلام وأن يتفقهوا فيه وأن يعلم بعضهم بعضا، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢]. ولقد طالما نفرت طوائف من المسلمين فأنذروا قومهم وحاولوا تفقيههم في الدين، ولكن الحكومات الإسلامية أخذت على نفسها أن تحارب هذه الطوائف، وأن تحول بينها وبين ما يوجبه الإسلام، إرضاء للاستعمار، وإطاعة للطواغيت، وموالاة لأعداء الإسلام، ورضيت الجماهير هذا الوضع من الحكومات، وما كان لها أن ترضاه، فشارك الجمهور في خنق الإسلام، وهدم الجماعات العاملة للإسلام)[1].

ومثلما يكشف هذا القول عما كان في قلب عبد القادر عودة من لذعات، فإنه يشير أيضا إلى أن قادة الدعوة لا يصطنعون ولا يغتصبون لأنفسهم حقوقا يطالبون بها جماهير المسلمين، وإنما يبنون مطالباتهم على أساس، وبينات، ومستندات، تثبت لهم حقهم، كهذا البيان الشاطبي الثمين.

قمة الوعي يرتقيها الإمام البنا

وبتدبر كلام الشاطبي تفهم أيضًا سر اعتداد الإمام البنا / بطريقته ومنهجه حين فاصل المضطرين وصارحهم أن:

---

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه/ ٦٨.

(إن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب، والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة، وما النصر إلا من عند الله) [1].

فبين مفاصلة الأسلوب ومنهج العمل مع الواهمين ممن يعمل للإسلام، وهي غير مفاصلة العقيدة مع أهل الكفر والبدعة، فإنه هنا يتحدث عن المنهج الفاشل الذي يزينه الخوف لأصحابه أو توقعهم فيه البساطة والسذاجة، والمنهج الفاشل عنده ما غاير منهجه، أو اكتفى بجزئية من منهجه فحسب دون ما يكملها، فإن عرفت منهجه عرفت ما يخالفه، وإن أحطت بشمول وسائله استبنت قصور وسائل الآخرين.

وهو، لذلك، يوجز سمت الجد العام لمنهجه في العمل، فيقول: **(إن رواسب القرون الماضية، ونتائج الحوادث الخالية، لا يمكن أن تزول بأمنية تختلج في الصدور، أو كلمة تكتب في الصحف، أو خطب تلقى على الجماهير، بل لابد من طول الأناة، ودوام المثابرة، وعظيم المصابرة، والدأب على العمل)** [2].

إذن ليست هي كلمة أو خطبة أو غير ذلك من وسائل الفرديين، بل لابد من وسيلة أوجبها الإسلام لظهور أحكامه في التطبيق يجب أن تجعلها الحركة الإسلامية هدفا لها.

لابد عنده **(أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي، وتعلن مبادئه القويمة، وتبلغ دعوته الحكيمة للناس ما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعا آثمون مسئولون بين**

---

(١) إلى الشباب، للإمام البنا/ ١٦.

(٢) مجلة (الدعوة) المصرية في العدد ٦٧.

يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم في إيجادها، ومن العقوق للإنسانية في هذه الظروف الحائرة أن تقوم فيها دول تهتف بالمبادئ الظالمة وتنادي بالدعوات الغاشمة ولا يكون في الناس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام) [1].

وكرر هذا المعنى بحروف وأوضح، فقال:

(قد يكون مفهوما أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذًا لأحكامه، وإنصاتًا لآياته وأحاديث نبيه ﷺ. أما والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في واد، والتشريع الفعلي والتنفيذي في واد آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف) [2].

وتعتبر سيرة الإمام العملية، وبناؤه للحركة الواسعة المنظمة، خير شرح يفهم منه العاملون مذهبه في العمل الجماعي لتحقيق قيام هذه الدولة.

المودودي يشرح المراحل

وقد شارك الأستاذ المودودي في رسم صورة الحركة الإسلامية التي يظنها أهلا لتحقيق مهمة الاستخلاف في الأرض وبناء دولة الإسلام.

وهو يوجب على الجماعة الحركية أن تلتزم بتربية:

(مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام، وتوائم طبيعته) [3].

---

(١) بين الأمس واليوم، المجموعة/ ٢٢٥.

(٢) المؤتمر الخامس، المجموعة/ ٢٧٢.

(٣) منهاج الانقلاب الإسلامي، مجموعة نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون/ ٨٢ / ٨٣.

ثم تلح الجماعة على نفسها في تربية أفرادها على هذا الأساس لتنتج دعاة يقومون بمهمة نشر الفكرة من الذين (**لهم حظ وافر في القانون، والسياسة، وفي كل فروع العلوم والفنون، من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ودمائهم، والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعًا يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات، ومنهاج كامل للحياة العملية مبني على مبادئ الإسلام وقواعده، والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا به أئمة الفكر ممن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويجاذبون بحبل، حتى يبسطوا سلطان سموهم الفكري على عقولهم وأذهانهم ويرغموهم على الاستسلام لزعامتهم الفكرية والعقلية**) [1].

فإذا ما سارت الحركة شوطا في هذا المضمار التربوي والتبشيري تدخل مرحلة الصراع مع الفكر (**مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد في المجتمع الإنساني**) [2]، ذلك (**أن نظام الإمامة لن يحدث فيه أي تغير بمجرد وجود فئة مثل هذه في الأرض، بحيث إنها إذا تألفت وأخذت في الوجود مكانها تنزلت من السماء الملائكة ونحَّت الفاسقين الفاجرين عن كرسي السيطرة والسلطان وبوءوه هؤلاء الصالحين المؤمنين، بل مما لا مندوحة عن لهذه الفئة المؤلفة أن تستمر في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق**) [3].

وخلال هذا الصراع (**يمتحن القائمون بالدعوة وحاملو لوائها بأنواع من المصائب والشدائد، فيقاسون الآلام والأهوال، ضربا وقتلا وإجلاء عن**

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية/ ٣٤.

(٣) منهاج الانقلاب الإسلامي/ ٨٤.

الوطن، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر، وجلد، وإخلاص، وعزم قوى، ويبتلون بالشدائد.، ويفتنون) [1].

ولكن ثباتهم يؤدي إلى احتدام صراع معاني الحق والباطل في نفوس أفراد المجتمع الذي يرقبون ثباتهم، وصل الصراع إلى أوجه وذروته في نفوس بضعة أفراد كل يوم جديد، فيقررون بشجاعة الانحياز إلى جماعة الدعاة الثابتين، وهكذا تستمر جمهرة الدعاة في ازدياد مطرد، **(أما أصحاب الطباع الفاسدة والذين في قلوبهم مرض ممن يتبعون الأهواء والشهوات فسوف تختفي أصواتهم، ويضمحل نفوذهم شيئا فشيئا بإزاء تيار الحركة الجارف، وسيرها الحثيث)** [2].

أُنس الطريق

وإنها لمسيرة طويلة، لكن يسلي أثناءها حداء الحادين.

وإنها لمهمة صعبة، لكن تهونها وتبدد تعبها بلاغة الصادقين حين ينادون:

قم نعد عدل الهداة الراشدين ... قم نصل مجد الأباة الفاتحين

قم نفك القيد قد آن الأوان ... شقي الناس بدنيا دون دين

فلنعدها رحمة للعالمين ... لا تقل: كيف؟ فإنا مسلمون

يا أخا الإسلام في كل مكان ... أصعد الربوة واهتف بالأذان

وارفع المصحف دستور الزمان ... وامألأ الآفاق: إنا مسلمون

مسلمون مسلمون مسلمون ... حيث كان الحق والعدل نكون

نرتضي الموت ونأبى أن نهون ... في سبيل الله ما أحلى المنون [3]

---

(١) (٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) ليوسف القرضاوي، مما أعيد نشره في مجلة التربية الإسلامية ببغداد في مجلدها السادس / ٣٩٥ .